قراءة أدونيس للنص الصوفي

القراءة الانبهار

د. عصام العسل*

تتوزع قراءة أدونيس للنص الصوفي على مجموعة من كتبه بدءا بالثابت والمتحول، مرورا بكتاب الشعرية العربية وانتهاء بكتاب الصوفية والسوريالية، وان كان كتابه الأخير الآكثر شمولا في فهم الصوفية كحركة ابداعية، فضلا عن الاهمية الواسعة التي اولاها أدونيس للطروحات السوريالية بالدرجة الأساس ومحاولة فهم الصوفية من داخل النظام المعرفي السوريالي، وليس الفهم المتصل بالنص الصوفي بصورة مباشرة وهو ما يمثل امتدادا للقراءة الأدونيسية التي تهاجر بعيدا عن النص المقروء قبل الوصول اليه، بما يمثل من اغتراب عن النص لينتهي الى الاقتراب منه دون تفكيكه، وهو يعطي القراءة الأدونيسية طبيعة القراءة لنصوص من خلال نصوص أخرى، وهو ما اشار اليه أدونيس بقوله:(احب هنا ان اعترف بانني كنت من بين الذين اخذوا بثقافة الغرب، غير انني كنت، كذلك، بين الاوائل الذين ما لبثوا ان تجاوزوا ذلك، وقد تسلحوا بوعي ومفهومات تمكنهم من ان يعيدوا قراءة موروثهم بنظرة جديدة، وان يحققوا استقلالهم الثقافي الذاتي. وفي هذا الاطار احب ان اعترف ايضا انني لم اتعرف على الحداثة الشعرية العربية، من داخل النظام الثقافي العربي السائد، واجهزته المعرفية، فقراءة بودلير هي التي غيرت معرفتي بأبي نؤاس، وكشفت لي عن اسرار شعريته وحداثته. وقراءة مالارميه هي التي اوضحت لي اسرار اللغة الشعرية وابعادها الحديثة عند ابي تمام، وقراءة رامبو ونرفالوبريتون هي التي قادتني الى اكتشاف التجربة الصوفية بفرادتها وبهائها. وقراءة النقد الفرنسي الحديث هي التي دلتني على حداثة النظر النقدي عند الجرجاني، خصوصا في كل ما يتعلق بالشعرية وخاصيتها اللغوية-التعبيرية).[1]

يعد هذا النص من النصوص المضللة في طروحات أدونيس التي ينوي بها الكشف عن تكوينه الثقافي، ذلك التكوين الذي اغترب به عن بيئته اول الامر لينظر اليها بنظرة الاخر في نهايته. ولا يعني هذا ان معرفة ثقافة الاخر هي ابتعاد عن نمط الثقافة التي ينبثق منها المبدع ولكن يجب ان يتم الانتباه الى مثل هذا الارتماء التام دون مسوغ

* اكاديمي / كلية الآداب / الجامعة المستنصرية

حقيقـي، كافتقار الثقافة التي انطلق منها الى جوانب ابداعية وهو ما لا تمثله الثقافة العربية بوصفها مؤسسة تأسيسا محكما، وعلى الرغم من ان أدونيس حاول ان يكسر هذا الانسـلاخ عـن هوية امتـه الابداعيـة حين اشـار الى انه اسـتقل بعد ذلك استقلالا ثقافيا ذاتيا، غير ان هذا الاسـتقلال ظلت تلوح عليه سمة التغريب التي لم يعرفنا عليها بصورة واضحة، فبودلير هـو الذي غير معرفته بأبـي نؤاس، ومالارميه اوضـح له شـعرية ابي تمـام، ورامبو اوضح لـه اسرار التجربة الصوفيـة، والنقد الفرنسي قدم لـه حداثـة النقد عنـد الجرجانـي، وهو امر حـاول أدونيس ان يتداركـه لان الانقطاع عـن الماضي بصـورة تامة غير ممكـن وهو ما عبر عنه عـلي حـرب بقوله:(فـلا انقطاع عن المـاضي يتم بصورة جذرية او كلية. ثمة عائق يحـول دون ذلك، هو النصـوص التي تكرهنا عـلى اسـتعادتها والاشـتغال عليهـا، بقدر ما تواصل صمودهـا ازاء تغير الوقائع وجريان الاحداث)[٢] فالنصوص تقدم شرعية وجودها عـن طريق الشـفرات التي تمنحهـا للمتلقي، والانساق التي توفرها في الاطار العام للثقافة. ان هـذه الآراء جميعها تقـدم ثقافة الاخر على انهـا ثقافة اكثر مرونة وحيوية، ومستسـاغة بشـكل يفسر نتاج الاخرين حتى مع اختلاف اللغـة، وهـو يضـع النـص العربي(الشـعر والنقد) في حالة غياب شبه تام حين لم يتمكن هذا النص من تقديم نفسـه الا بواسطة، وهنا تلعب الثقافة المغايرة دور المنبه الذي كثيرا ما يؤكد عليه أدونيـس حين يريد ان يمنح اهمية ما لظاهرة ما كما اتضح في حديثه عن قصيدة النثر الفرنسـية التي نبهته الى شـعرية النص الصـوفي الذي لـم يغب عـن الثقافـة العربية حتـى وان وضع في زوايا غـير مرئية بوضوح حين بدا بشـد قصيدة النثر الفرنسية الى اصل صوفي عربي، غـير ان المنبه هنا بدأ بلعب دور سلبي في قراءة أدونيس الذي وظف التأويل في كتبه المتأخرة عـلى النتاج الثقافي المغاير لمجرد وجود اوجه تشـابه بينه وبـين النتاج العربي، فوجد بذلك حلا لمسـألة النتاج الثقافي الكوني بان يجعله شـموليا ومترابطا في آن واحد، واذا لم يكـن هناك تطابـق تام بين شـاعر واخر، فالتقابل المعرفي الذي وضعه أدونيس يؤكد هذا الوجود او يقلل من اهمية شـاعر على حسـاب شاعر اخر، وان كان أدونيس قد حاول التهرب من عقد مقارنة حقيقيـة في تقابلاته غير انها اوضحـت ان تجربة شـاعر مغاير قد عرفتني بجانـب مـن تجربـة شـاعر انتمـي الى لغته وامارس الكتابة بها، ولكن للمسألة وجها اخر يقدم تفسيرا قد لا يضع هذه المعرفة في مكانها حين تجعـل من تعـرف أدونيس عـلى نتاجه إعـادة السـؤال من جديـد، فكيف قـرأ النتاج الغربي بعد ذلك، وهل لعب النتاج الغربي دور المنبه وقام أدونيس بسـلخه او وضعه في خانة يتم العـودة اليها كلما احتاج الى فهم نصوص جديدة، وهو ما اتضـح في قراءته لرامبو حين حاول ان يمنح صوفيته صفة مشرقية.

يذكـر أدونيـس ان التجربـة الصوفية تنطلق مـن القـول بان:(الوجود باطـن وظاهر، وان الوجـود الحقيقي هـو الباطـن)[٣] فنحن مع الصوفيـة نقف تجاه فهم جديـد لم يتوافر في اصـول الابـداع الاخرى، اذ شـكل هـذا الفهم

بـروز الجانـب الذاتـي في الانسـان ومحاولة ايجاد حلول لا يمكن لها ان تنسـجم مع النقل او العقل وانما تنسـجم مـع القلب معتمدة في ذلك على الـذوق الذي يمثل:(الكشـف المباشر الـذي يتم عـبر حالـة تتلبس الصـوفي فتبدل صفاته وتقـوده في حركة تتجاوز الشريعة الى الحقيقة، متجهة نحو الكشف عن الله، جوهر العالم، والفناء فيه)[٤].

ان التجربـة الصوفيـة في اعتمادها على الذوق انما تريد من وراء ذلك الوصول الى الله، فغاية التجربـة الصوفية كمـا يصورها أدونيس هي جعل الانسان إلهاً او ان يكون الانسان هو الله ذاته، من خلال فناء الانسان في الله، ولقد قرن احد الباحثين هذا الفناء من الانسـان في الذات الالهية بحركة الوحي، كما في قوله:« ان حركة الوحي النازلة من الله الى الانسان والتي تعني الكشف والافصاح والبيان قد تحولت في الفكر الدينـي المتأخـر الى حركة صعـود من جانب الانسـان سـعيا الى الله ذاته. وعلى حين كانت حركـة الوحي في بدايتها تسـتهدف الانسـان بما هـو عضـو في جماعة ومن ثم تسـتهدف إعـادة بناء الواقـع لتحقيق مصلحة الانسـان ولإشـباع حاجاته المادية والروحية فقد كانت الحركـة الانسـانية في التصـورات الصوفيـة حركة للخلاص الذاتي الفردي بمعانقة المطلق والفناء فيه» .[٥]

ان هـذا الوصـول الى الله انما يتـم عن طريق الوصـول الى الباطـن الذي لـه معنيان:(الاول سـعي من الظاهـر الى الباطن، مـن الشريعة الى الحقيقة، مـن العالم الى الله. والثاني تبدل في الصفـات وتحـول داخـلي، يهيئـان النفس ويمكنانها من رؤية الله والاتصال به)،[٦] وهذا السـفر له دلالة الهرب من الواقع لا مواجهته، حيـث يتم الانكفاء عـلى الذات بصـورة كلية، وهذا الانكفاء لا يعني التفكر في ذات الانسـان بـل ان الغربة عن النفس هـي التي يمكن لها وحدها ان تجعل الانسـان يلتقي بنفسـه، ولو وقفنـا مع المتصوفة في تعريفهـم للتصوف لما امكننا ذلك من الوصول الى تعريفهم للتصوف ولما امكننا ذلك من الوصول الى تعريف جامع مانع للتصوف، ومرد ذلك ان التجربة الصوفية تظل تجربة شخصية يمر بها الفرد ولا يمكنه ان ينقـل منها الا القليل، وقد عرف الجرجاني التصـوف بانه:(الوقوف مـع الآداب الشرعية ظاهـرا فيرى حكمهـا من الباطـن في الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال... وقيل هو صفاء المعاملة مع الله تعالى واصله التفرغ عن الدنيا).[٧] فالجرجاني في النص السابق حاول ان يعطـي تعريفـا دقيقـا لا يعتمـد التجربة الذوقية وحدها وانما يعني المشـاهدة للتجربة ايضا، اي الحضور، غير ان صاحب حلية الاولياء يورد تعريفا مـن بين عشرات التعريفات التي يبثها في موسـوعته، يقول فيـه:(ان التصوف الاعتصام بالحقائـق عند اختلاف الطرائق)[٨] فهـذا التعريف يمنح التجربة الصوفية معرفة الحقيقة بـل اقتصار معرفـة الحقيقة عليها، لان اختـلاف الطرائق لا يعنـي تعدد الحقيقة وانمـا يعنـي ان الحقيقة موجـودة في طريقة واحدة هي الطريقـة الصوفية، مما يجعل من التجربـة الصوفية تجربة غـير قابلة للقياس، بـل ان الصوفي نفسـه لا يسـتطيع ان يتحدث عنها، لأنه اذا اراد الحديث عن تجربته انما يتم

ذلـك عن طريق العقل الذي يعد حاجزا يحول دون الوصـول الى الحقيقـة، لان الوصـول الى الحقيقة عند الصوفية يتم عن طريق: (تجاوز العقل وتعطيل فاعليتـه)[٩] فالصوفية تجربة ذوقية اعتمدت على الباطن في فهمها للأشـياء، وعبرت عن هذا الفهم بما اصطلح على تسميته بالشطح الذي يعده أدونيس: (الشكل الاقصى والاكمل للتعبـير الصـوفي)[١٠] وهو:(نوع من الحضـور في بدئيـة اللغـة يطابـق الحضور في بدئيـة العالـم)[١١] غـير ان هـذا الشـكل الاكمـل والاقـصى للتعبير يصفه الـسراج بانه عبارة:(ظاهرهـا مستشـنع، وباطنها صحيح مستقيم).[١٢] وتعريف الصوفي للشطحة يؤكد عـلى التوحيد عندهم بين التجربة وبين التعبير عنها، فبما ان التجربة الصوفية تعنى بالباطن بوصفه الحقيقة وترفـض الظاهر الذي يمثل الشريعة، فان الشـطحة حتى وان صدرت عن تجربـة الباطن فـان لها ظاهـرا وباطنا، مما يعني الدخـول في دائرة مـن التأويل لا يمكن الخروج منها في كل شـطحة صوفية، وان كان هـذا لا يعني ان الشـطحات لا يمكن تأويلها، لان الصـوفي يعنـى بوضـع جانـب رمزي في شطحته، هذا الرمز سرعان ما ينجلي غموضه اذا ما عرف المتلقـي دلالة المرموز. وهي دلالة قريبة في اغلب الاحيان، كما ان مغايرة التجربة الصوفية للظاهر هو الـذي جعل منها تجربة ابداعيـة وذلك حين وحدت بين الله والانسـان عـلى اعتبـار ان الله جوهر مبثـوث في الوجود وليـس وراءه، وبغياب الشروط التي يمكن ان تحدد الحركة الصوفية بنقلها(تجربة الوجود والمعرفة من اطار العقـل الى اطار القلب، فلم يعد الوجود مفاهيم ومقولات مجردة، وبطلت المعرفة ان تكون شرحا لمعطى قبلي او تسليما بقول موحـى)[١٣] يمكن ان يتحدد الابداع مما يعني رغبة أدونيس في ان تظل المعرفة مسالة شخصية يحددها كل انسان بمفرده لان الذوق والقلب عمودا المعرفة الابداعية.

تسـتند قـراءة أدونيـس للنصوص الشـعرية الصوفية على مدى التغيير الفكري الذي تجيء به هذه النصـوص، وهو ما جعل من أدونيس يعمم الجانب الفكري في كل قراءة مارسها على النصوص الابداعيـة مما فوت عليه البحث عن الجوانـب الفنية، وهو امر لـه اهميته اذا كان النص الابداعي يمثل تعبـيرا عن رؤية العالم، غير ان هذه الرؤية لها مجالات اوسع خصوصا في البحـث الفلسـفي الـذي يعد هـذا الاتجاه خصيصة لازمة في تشكله، لذا يسعى أدونيس الى نقل الشـعر الى مجال مغاير عن مجاله او محاولة توسـيع افق الشعر التي تتم دوما على حسـاب الشـعر، مما يجعل من طراوة الشعر تنسـحب لتحل محلها برودة الفكر والحديث المجـرد الـذي يتطلبها. فشـعرية النفري هي شـعرية الفكر كما عبر أدونيـس في قراءته في كتاب (الشعرية العربية) او ما اضافه في قراءته لنص النفري في كتاب (الصوفية والسوريالية) وان كان موقـع النفريـة في كتـاب الصوفيـة والسـوريالية اكثر ملاءمة من موقعه بين أبي نواس والمعري في كتاب(الشعرية العربية)، اذ شكل حضوره هنا محاولة لإدخال نصه ضمن قائمـة النصوص العربية الذي شـكل الجانب الجمالي بنية رئيسـة فيها مع حضور الجانب الفكـري بوصفهـا نصوصا موزونـة مكتوبة

على سـبيل القصد في الانشـاء الشعري، او قد تكـون المحاولـة في ادخـال نـص النفري بين نـصي ابي نؤاس والمعري محاولة من أدونيس لسـحب النصين الى مجال نـص النفري تحت لافتة النص الاصل، وذلـك لان نص النفري في كتاب(الصوفية والسوريالية)اكثر انسجاما لما تضمنـه الكتاب من اسـتقلالية في البحث عن شعرية النصين الصوفي والسوريالي.

يرى أدونيـس ان النفري«يعطـي للدين بعدا ذاتيا، وهو في ذلك يؤسس نظرة معرفية أخرى تغاير النظرة الدينية التقليدية، وهو، في فهمه النـص القرآنـي، بطريقته التأويليـة، يحدث انقلابا في النظرة اليه، انه في الحالين ينقلنا من الظاهـر الى الباطن، ومن المعرفـة العقلية الى المعرفة الذوقية. وهو، اذ يؤكد التجربة الذاتية، يلغي النموذجية، فلا نموذج لنص النفري:انه نـص- اصل. وهو اذ يرسـم تجربـة لاتتكرر، يظل في تجدد مسـتمر. وهـذا مما يجعله نصا يرتبط بما لا ينتهي» .[١٤]

يمكن ان نحدد مفاصـل النص الاصل كما يأتي:

١.المغايرة التي تتوسـل التأويـل للوصول الى فهم جديد للدين.

٢.الانقلابيـة: التحول من الظاهـر الى الباطن والذي يؤدي بـدوره الى تنحي المعرفة العقلية والاستناد الى المعرفة الذوقية.

٣.اللانموذجيـة: الاكتفـاء الذاتـي في انجـاز النص.

يبـدا مفهوم النـص/ الاصل بالانسـحاب من قراءة أدونيس لنص النفري في كتاب الصوفية والسـوريالية ليحل محله النص/الاجتياح[١٥] وفـق تخطيط جديد للقـراءة افتقر اليه كتاب الشـعرية العربية، وقد بـدأت ثنائية العائق/ القطيعـة بالاشـتغال في قـراءة أدونيس، مما جعـل نـص النفري(يمثل قطيعـة مزدوجة: مع الكتابة الشـعرية في عصره، ومع لغة هذه الكتابـة وهـو، في ذلـك، غربة داخـل المعطى الشـعري الثقافي، وهو بوصفه غربة، يمارس نظاما آخـر للرؤية، والكتابـة، وطرق التعبير والعلاقة بين اللغة والشيء او الاسـم والمسمى، ويقلب تبعا لذلك، نظام القيم).[١٦]

ان نـص النفري وفق القراءة الأدونيسـية نص يسـعى الى اجتيـاح النصوص السـابقة له، نصوص المؤسسـة الثقافيـة التي يرفضها ويحاول ان يجد بديلا عنها، وفق تقنية جديدة لـم توفرهـا النصوص السـابقة، غـير اننا لا يمكننا ان نعده نصا جديدا في الثقافة العربية، فالقـراءة هنا تشـير اليه بانه غامـض، وبان الكتابة تغيير، اي ليست ابتكارا، بل انه يرتكز على نصـوص معينة ليتغير عنهـا. ان القراءة هنـا تعبر عن ظهـور ملامح شـعرية في نص النفـري، اي ان سـمات الشـعرية التي يمكن ان تطلـق عـلى نص تنطبق على نـص النفري مـن خلال ايجاده لعلاقات جديدة والعودة الى براءة الكلمة للبحث عن مسـمياتها الاولى، اي وجود للكلمات دون دلالات محددة، لان تحديد الدلالـة مرتبط بالمواضعـة الاجتماعيـة التي يجدها أدونيس نوعا مـن التقليد كما في قوله: «ان نص النفري لا يستقصي الخارج الواقعي لان الكلمة، شعريا، ليست اداة تبطل ان تكون شعرية ان كانت مجرد اداة، ولا الخارج المثالي لان الكلمـة شـعريا ليسـت اسـتيهاما تبطل

شــعريتها ان كانــت مجرد اســتيهام. ان هذا النص يســتقصي الحركة التي تتيح الانفصال عن مسار ما استنفذته الأسماء، وتتيح التواصل مع ما لم يســم مع الغيب، ان اســتقصاءه هو تحركه الدائم في المســافة التي لا تنتهي والتي تفصل او تظل بين الكلمات والأشــياء، وتكمن ابداعيتــه في الكشــف عن العلاقــات الغامضة في الكــون الــذي لا ينتهــي اي الــذي لا ينتهي غموضــه» .[١٧]لقد وقعت القراءة الأدونيســية لنــص النفري في مــأزق عبرت به عــن طبيعة العلاقة بين نص النفــري وبين النص الديني، ممــا جعــل القــارئ يتجــه الى المقــروء بوعي مغايــر لا يرتبط بمجال المقروء أساســا، الامر الــذي ادى الى ظهور خلل في قــراءة أدونيس، تلك القراءة التي ظلت محكومة بطبيعة النص الدينــي وليس النص الشــعري، مما جعل من قراءة أدونيس تنسحب من نص النفري لتتجه الى قــراءة التجربــة الصوفيــة، لان معطيــات نص النفــري بدأت تتقلص بصــورة واضحة خصوصــا بعــد ان تمــت مقارنتهــا بالنــص الديني، وهي حيلــة قرائية يلجأ اليها أدونيس كلما كان النص المقــروء غير مهيأ للطروحات التي جهزها أدونيس له. فالمتلقي يظل في حالة انتظــار وترقب. كما ان قراءة أدونيس لا تقدم جديدا لأنها تقوم على الالتقاط من جهات عدة مــن اجل ايهام القارئ بحساســية المقروء من جهة، واهميته وبعده الثقافي من جهة ثانية.

الهوامش:

(١)- الشعرية العربية ، ص٨٦ .

(٢)- الممنوع والممتنع، ص٢٢.

(٣)- الثابت والمتحول، ج٢،ص٩٣.

(٤)- المصدر نفسه، ج٢، ص٩٢ .

(٥)- نصر حامد ابو زيد، مفهوم النص، ص٢٤٥.

(٦)- الثابت والمتحول، ج٢، ص٩٢ .

(٧)- التعريفات، ص٨٢ .

(٨)- ابو نعيم الاصبهانــي: حلية الاولياء وطبقات الاصفياء، ج١، ص٩٢ .

(٩)- الثابت والمتحول، ج٢، ص١٥ .

(١٠)- الثابت والمتحول، ج٢، ص٩٦ .

(١١)- المصدر نفسه.

(١٢)- المصدر نفسه.

(١٣)- الثابت والمتحول، ج٢،ص٩٩.

(١٤)- الشعرية العربية: ص٦٥.

(١٥)- مصطلح اقترحه الباحث ولم يشر له ادونيس مفــاده ان النــص الاجتياح صــورة مكملة للنص الأصل لايلتزم بماهيــة النص الاصل وانما يكون الاخير مقدمة له.

(١٦)- الصوفية والسريالية، ص١٨٥.

(١٧)- الصوفية والسريالية، ص١٨٦- ١٨٧ .